مقدمة في طبيعة التفكير العلمي وأصوله القبلية في ضوء القرآن الكريم

صالح بن طاهر مشوش(*)

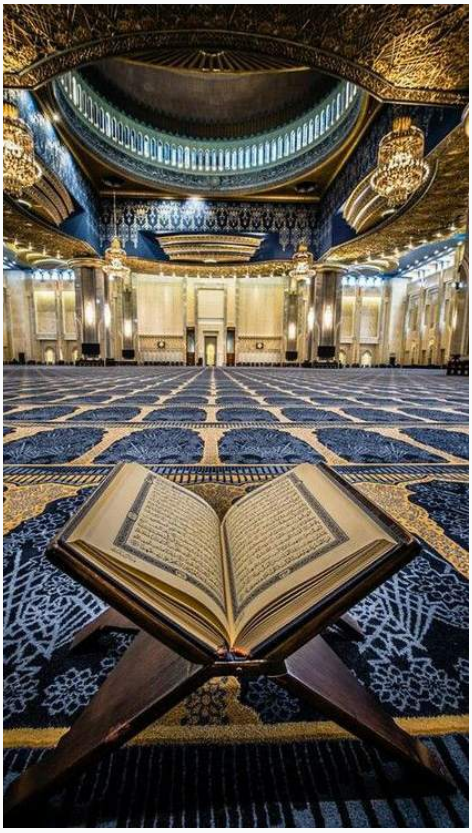

المقدمة:

إن من مقاصد الوحي والنبوة تسديد الفكر الإنساني، وتقويم ما يترتب عنه من أحوال وأفعال وأعمال، بحيث كلما قصرت مسافة التصور والتفكير بين الوحي والعقل، كلما ازدادت نسبة الحق والصواب والصلاح، وكلما تباعدت تلك المسافة وتنآءت، ضَعُف مقدار الصواب والسداد، لتبدأ مرحلة الجهل والضلال، وامتداد الفساد والسقوط. ولما كان الأمر كذلك؛

(*) أستاذ مساعد، قسم الدراسات العامة، كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية-ماليزيا. البريد الإلكتروني:

btahar75@gmail.com

وجب على الباحث المسلم أن يطور إحساساته المعرفية، خاصة تلك التي تحدد قياس تلك المسافات والأبعاد، وأن يعمل بإحكام وإتقان لضبط تلك المسافات التي تربط العقل والفؤاد بمصادر الوحي (القرآن والسنة النبوية)، وذلك من خلال إدراك السبل العلمية والعملية، النظرية منها والتطبيقية، التي تقربه إلى «مثال المعرفة الإنسانية» للوحي.

لقد شاعت قراءة أحادية الاتجاه التي تقدم مركزية التفكير الإنساني وأحواله كمحدد لمعاني وتطبيقات نصوص الوحي عند كثير من الباحثين الذين يسعون جاهدين، تحت ذرائع مختلفة ومسميات فلسفية متنوعة ومتجددة، إلى «أنسنة الوحي»، بمعنى تأويل مضامينه المطلقة على غرار ما تمليه العوامل النفسية التبريرية لأحوال العمران البشري النسبي، بإثارة متغيرات عديدة مثل «المناسب الإنساني»، و«روح العصر أو الزمن»، أو «الدهرية» و«إحداثية المكان»، و«التطور وتغير الأحوال»، و«مقتضى المصلحة»... وغيرها، ولا شك أن الغلو في إثارة هذه المتغيرات وتوظيفها غير المنهجي يسوق صاحبه إلى تجنب الحق والانحراف عنه كلما زاد تقديم التفكير الإنساني على حساب مصادر الوحي. وهذا ما يقع بالفعل في وقتنا الحاضر بظهور اتجاهات إنسانية مفرطة بمسميات عديدة مركبة، تنبني على علاقة فكرية أحادية تقوم على أساس مركزية الإنسان لا الوحي الإلهي.

إن اعتماد الانطلاقة الإنسانية المقابلة للوحي هي بمثابة اعتماد النسبي والخلافي والظني على حساب الثابت من القيم الإيجابية التي تقدمها مصادر الوحي لهداية الفكر الإنساني وتصحيح مساره في معرفة ذاته وإدراك كنه الوجود، بسبب ما تولده من الاضطراب وانفلات التحكم في تأويلاتها المتناقضة المتداولة، كما تسبب أيضًا صعوبة في تحديد مآلاتها الدينية والفكرية والاجتماعية؛ لأنها افتقدت ضبط منهجية التفكير وفق كليات الوحي ومبادئه. ولهذا يمد التمعن في قراءة القرآن القارئَ بحقيقة مفادها

أنه كتاب موجَّهٌ للإنسان في وحدته وكليته، وأنه عرَّف البشر بما يجب أن يعرفوه من صفات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وأنه يشمل جميع أبعاد الإنسان بداية من الروح، والنفس والشعور، والذهن والسلوك، وأنه لم يترك له فجوة في بيان طينته وطبيعته وخصائص ماهيته الظاهرة والخفية، وتفسير رسالة الإنسان في الحياة وما يعرض له من عوارض، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال[1].

إن المعرفة الإنسانية مركب وخليط حضاري لا يمكن اختزاله إلى عناصره الجزئية أو فصل تلك المكونات عن بعضها البعض. وهذا المركب تكونه عناصر أساسية مستمرة في الوجود والتأثير باستمرار حركة الإنسان ونشاطه في هذا العالم. وأبرز هذه العناصر: الدين، واللغة، والرؤية الكونية، والتجربة الإنسانية. إذا أخذنا مسألة الدين نجد تجربة الإنسان المسلم صنعتها حقبة تزيد عن أربعة عشر قرنًا من الاحتكاك واستمداد بنصوص الوحي، وأنتج من خلالها علومًا كثيرة ومتنوعة، مكنته من استيعاب الدين وإقامة العمران (أي الحياة الاجتماعية). وخلال هذه المسيرة، اعتبر المسلمون الوحي أعلى مصادر المعرفة وأرقاها، بالنظر إلى ما منحته للإنسان من هدايا تقوده إلى حقائق مطلقة، يعجز الكائن البشري -فردًا أو جماعة- بحكم محدودية قدراته في التعقل والتفكر والفضول عن الإدراك والإحاطة بحقائق وجوده والعالم الذي يحيط به.

إن أهمية مصادر الوحي في الأصولية المعرفية الإسلامية لم تكن مجرد فعل تقديسي اعتباطي، بل هي استحقاق معرفي مطلق للمصادر الإلهية

(١) ذكر هذه العوارض عبد الرحمن ابن خلدون. انظر: **المقدمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، المغرب، دار البضاء، بيت الفنون والعلوم والآداب، (٢٠٠٥م)، (١/ ٥١، ٥٢).

المعصومة، التي تسوق العقل والفطرة للحق والشهود وترد الزيغ والباطل. ولم تكن استفادة المسلم من مصادر الوحي مقتصرة على مجال بعينه، لكن اتسمت بالاتساع والشمول لاستعانته بمصادر الوحي، التي تشمل مختلف علوم ونشاطات العمران، غير أن ذلك تعثر بتعثر العمران بسبب ما عرض من تقلبات في الدين والملك الذي أشرفهم على مراحل أخرى سلبية تعكس خصائص الضعف والتراجع لأسباب ذاتية وخارجية، مباشرة وغيرها. لكن حقيقة ما حدث ولا يزال يحدث إلى الآن خاصة فيما يتعلق بعلوم العمران في مثل هذه المراحل السلبية، التي سمّاها البعض بالركون[1] والانقباض، يمكن تفسيره بدراسة تأثير «مركزية علوم الوحي في تشكيل العمران البشري»، باعتباره مقياسًا

وخلال هذه المسيرة، اعتبر المسلمون الوحي أعلى مصادر المعرفة وأرقاها، بالنظر إلى ما منحته للإنسان من هدايا تقوده إلى حقائق مطلقة، يعجز الكائن البشري -فردًا أو جماعة- بحكم محدوديته قدراته في التعقل والتفكر والفضول عن الإدراك والإحاطة بحقائق وجوده والعالم الذي يحيط به.

فاعلًا وحاسمًا يجلي العلل ويبرز الأدواء التي يعاني منها المسلم سواء كان فردًا أو جماعة أو أمة. وإهمال هذا العامل أو المؤشر في تقويم محاولات الإصلاح الروحية والفكرية والعلمية والتعليمة والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية بشكل عام هو بمثابة تضليل الفكر عن إدراك الأسباب الحقيقية للنهوض وتجاوز شدة الجهل والتخلف. لقد تعددت التفسيرات لوضع المسلم السلبي، وتنوعت النظريات الإصلاحية، بل وتضاربت المقاربات وأصبحت أحيانًا هي الأخرى سببًا لأزمة الوضع،

(١) مفهوم أخذ من القرآن في قوله الله -تعالى-: {وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [هود: ١١٣]، ومعناه المداهنة والميل، والرضا بشيء، والسكون حسب ما جاء في بعض التفاسير. قال الرازي: «والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه» **تفسير الفخر الرازي**، بيروت، دار الفكر، (١٩٨١م)، (٧٣/١٢).

لكن رغم ذلك سنحاول في هذه الدراسة التأكيد على الدور الذي يلعبه التفكير العلمي والتصور الصحيح للعلم في تجاوز الكثير من تلك العقابات التي تقف أمام نهوض الأمة الإسلامية، وهذا التوجه يأخذنا إلى جذور المسألة وهي علاقة المعرفة بالنفس الإنسانية.

لقد ذكر القرآن المجيد هذا الجذر في مناسبات عدَّة منها: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ١٦٥]؛ {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٥٣]؛ {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} [الرعد: ١١]. بيّنت هذه الآيات الكريمات أصل مشكلة الإنسان كما أشارت إلى أصل الحل الجذري الرباني الذي لا مناص لتجاوزه في أي حال، ألا وهو تغيير النفس وفق ما يقدمه الدين من الهداية والرشاد. ولأهمية معرفة طبيعة النفس الإنسانية لبناء الحياة الطيبة في الدارين، نجد أن العلماء انكبوا على دراستها مبكرًا في مختلف العلوم التي اشتغلوا بها، وجعلوا لها حظًا كبيرًا في مؤلفاتهم كالتي تخص مسائل «أدب النفس».

إن التفكير جزءٌ من مركب النفس الإنسانية أو ما سماه القرآن الكريم «الفطرة»، يحتل مكانة عالية في هذا المركب، الذي يمثل العصب الأساسي في معادلة التغيير الإيجابي للنفس الإنسانية من منظور مصادر الوحي. ويتسم التفكير العلمي الذي نقصده بالشمولية، والمقصود به التفكير السليم، أو كما سماه ابن خلدون «التفكير الطبيعي» أو «التفكير الفطري» بلغة القرآن، وهذا التفكير الذي يلزم كل إنسان بعيد عن اعتبار مرتبته العلمية؛ مما يمثل المستوى الأول في سلَّم التفكير العلمي الذي يحصل بنسب متفاوتة حسب المعلومات والملكات المكتسبة والتجربة والخبرة والمنجزات.

إن التفكير جزءٌ من مركب النفس الإنسانية أو ما سماه القرآن الكريم «الفطرة»، يحتل مكانة عالية في هذا المركب، الذي يمثل العصب الأساسي في معادلة التغيير الإيجابي للنفس الإنسانية من منظور مصادر الوحي.

طبيعة التفكير الإنساني وأنماطه:

لعل أول ملاحظة يسجلها الناظر في مصادر الوحي أن التفكير لا يقوم على علاقة أحادية أو ثنائية تنتسب إلى عضو حسي بعينه، بل وظيفة جامعة ومتعدية تشترك فيها جلُّ الوسائط الإدراكية الظاهرة كالحواس الخمس، والخفية كالحدوس والطاقات الإدراكية اللدنية التي يمنحها الله لعباده مثل الفراسة[١]، وقوى الكشف والرؤى وغيرها، إضافة إلى قوى أخرى نجهله، وكذلك الظروف الذاتية والخارجية والاعتبارات الزمانية، التي تؤثر في آنيات التفكير. وقد أصاب ابن قيم الجوزية هذا الوجه من مفهوم التفكر حين عرَّف الفكر بأنه «إحضار معرفتين في القلب ليُسْتَثْمَرُ منها معرفة ثالثة»[٢]، وقدم مثالاً لذلك قائلًا: «إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين أثمر له ذلك علمًا ثالثًا؛ وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة»[٣]، ولعله السبب الذي لأجله لم يذكر القرآن الكريم ولو مرة واحد «العقل» في صيغته الاسمية، كما لم يذكر تعلقه حصريًا بالدماغ كما تروج له الأدبيات الغربية. إن الباحث

(١) لمعرفة نماذج من الفراسة، انظر: ابن قيم الجوزية، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، تحقيق: نايف أحمد الحمد، مكة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (١٤٢٤هـ)، (٢/ ٩٦ - ١١٢).

(٢) ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة ونشور ولاية أهل العلم والإرادة**، ضبطه وعلق عليه وأخرج أحاديثه: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد، العربية السعودية: دار ابن عفان للنشر والتوزيع، (ط. ١)، (١٩٩٦م)، (١/ ٥٤٢).

(٣) ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**، (١/ ٥٤٢).

المسلم يدرك مثلًا أن معنى التعقل ورد في القرآن الكريم «وظيفة» بصيغ الجمع مثل «تعقلون» و«يعقلون». أما النسبة أو التعلق العضوي للتعقل والتفقه والتدبر، فقد نسبها القرآن للقلب[1]؛ لا لعضو فيزيولوجي آخر [الأعراف: ١٧٩؛ الحج: ٤٦؛ محمد: ٢٤].

وأما مركزيته في بناء شخصية الإنسان بكليتها فقد أشارت السنة النبوية بوضوح إليه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أَلا وإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»[2]. وبسبب ما ورد في الوحي أدرك العلماء أهمية القلب، وانكبوا على دراسته وبيان دوره في صياغة شخصية الإنسان، والتأثير في أبعادها الروحية والنفسية، والذهنية والإدراكية والذهنية والخلقية السلوكية. على سبيل المثال: ما قاله أبو حامد الغزالي في وصفه للقلب بأنه «لطيفة ربانية روحانية... وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب»[3]. أما الجوارح الأخرى فهي في اعتقاده «أتباع، وخدم، وآلات»[4] بينما القلب هو «الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل»[5].

ولمعرفة تنوع الطبيعة الوظيفية للقلب، نشير إلى الأسماء المختلفة التي سمي بها القلب في القرآن؛ إذ إن كل اسم له دلالة مميزة نستنتج من خلالها تمايز الوظائف القلبية. لقد وردت أربعة أسماء أخرى إضافية

(١) تمكنت بعض الدرسات الحديثة في الغرب من تجاوز الاعتقاد السائد بأن الدماغ هو العضو الوحيد الذي يقوم بوظيفة التفكير، انظر على سبيل المثال:

Paul Pearsall, The Heart's Code (Broadway Books New York, 1998).

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث: (٥٢).

(٣) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار ابن حزم، (٢٠٠٥م)، (ص/ ٨٧٧).

(٤) **المصدر نفسه**، (ص/ ٨٧٦).

(٥) **المصدر نفسه**، (ص/ ٨٧٦).

للقلب الذي ورد ذكره ٩٣ مرة، وهي كالتالي: الفؤاد، وقد ذكرت مرات، في حين ذكر اللّب ست عشرة مرة، أما النُهى فذكرت مرتين، والحِجْر مرة واحدة فقط[١]. فمثلاً يقوم القلب وفق وصف اللّب بالاحتفاظ بما يمكن الاصطلاح عليه باليقينيات، ليستدعيها في كل حاجة بوساطة أعضاء أخرى كالدماغ والحواس التي تخدمه. واللب في اللغة: لبب: لُبُّ كلِّ شيءٍ، ولُبابُه: خالِصُه وخِيارُه، وقد غَلَبَ اللُّبُّ على ما يؤكل داخلُه ويُرْمى خارجُه من الثَّمر.... قال: ولُبُّ الرَّجُل: ما جُعِل في قَلْبه من العَقْل. وشيءٌ لُبابٌ: خالِصٌ[٢]، وهو المعنى الذي يناسب طبيعة الوظيفة التي أشرنا إليها.

وما ذكرناه في هذا المقام في شأن طبيعة التعقل وعلاقته بالأعضاء الفيزيولوجية كالقلب هو للتنبيه إلى الخطأ الذي وقع فيه كثير من الباحثين في تفسير هذه الجوانب من التفكير الإنساني. فقد انجذب عديد من المسلمين إلى أيديولوجية الفكر الفلسفي الروماني-الإغريقي القديم الذي منح العقل سلطة مطلقة ومركزًا ماديًا محددًا في الجسم وهو الدماغ. فالعقل أو (logos, nous) كما يسمونه، يمثل سلطة إدراكية مستقلة ومهيمنة تصدر حصرًا عن (الدماغ)، وهذا التصور الخاطئ لا يمكن فصله عن الرؤية الكونية للرومان والإغريق ومن قبلهم من الشعوب ونحل الأمم في الدين والسياسة. إضافة إلى أن هذه التعاريف القديمة لا تفي بالشروط الموضوعية للتقويم، كتلك التي عرضها طه عبد الرحمن لتعريف العقلانية، والتي تشمل المعايير الآتية: معيار الفعالية، ومعيار التقويم، ومعيار التكامل[٣]. وبسبب الآثار السلبية الخطرة التي يورثها مثل هذا الاعتقاد، تنبه كثير

(١) لمعرفة تفاصيل أخرى حول الوظائف الإدراكية لهذه الجوانب التي يضمها (القلب) راجع:
Salah ben Tahar Machouche, Bensaid Benaouda, Fadila Grine "Positive thinking: an Islamic perspective" (al-Shajarah (ISTAC), vol. 17. No. 2, pp. 225-256

(٢) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (توفي ٧١١هـ)، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، د.ت، مادة: «لبب»، (١/ ٧٢٦).

(٣) . طه عبد الرحمن، **سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية**، المغرب: دار البيضاء: المركز الثقافي العربي، (ط/ 1)، (2000م)، (ص/ 61، 62).

من علماء المسلمين إلى الأمر؛ فدعوا إلى معادلة التوازن بالنسبة إلى موقع الوحي، في صيغة للتوازن مشهورة فيما ألفوه لبيان موقع العقل من الوحي أو العلاقة بينهما[1]. لكن رغم تلك الإسهامات، إلا أن قوة الانجذاب إلى العلوم الدخيلة ووسائط الجدل المعرفية كانت ظاهرة ببروز مدارس الفكر في المجتمع المسلم، التي أولت (العقل) أولوية على حساب (نص الوحي) تمامًا كما في مدرسة المعتزلة، التي بالرغم من إسهاماتها في تنمية الفكر الإسلامي وبسطه إلا أن أخطاءها في تحديد ماهية ومركز (العقل والتعقل)، وطبيعته، ووظيفته الإدراكية، وعلاقته بالوحي، تسببت في وقوعها في انحرافات منهجية تحولت إلى قرارات سياسية بغيضة أدت في الأخير إلى تراجعها وسقوطها. قد لا تهمنا العودة الجديدة لفكر هذا المدرسة كما يروج لها أصحاب المدرسة العقلية؛ بسبب أن تلك العودة قائمة على الأصول نفسها في تحديد العقل،

لكن رغم تلك الإسهامات، إلا أن قوة الانجذاب إلى العلوم الدخيلة ووسائط الجدل المعرفية كانت ظاهرة ببروز مدارس الفكر في المجتمع المسلم، التي أولت (العقل) أولوية على حساب (نص الوحي) تمامًا كما في مدرسة المعتزلة.

وأن نهايتها الحتمية ستكون قريبة من المدرسة الأم؛ لأن حجم انزلاقها سببٌ كافٍ لنهاية أي فكر يقوم على أُسُسِها نفسها. إن العبرة التي يمكن استنتاجها من حصيلة معطيات تاريخ العلم في الإسلام، هي ضرورة اعتبار النظام التوحيدي في التوازن والشمول والتحقيق التي بينتها وأسستها مصادر الوحي، بدليل العلوم المتعلقة بها في تفسير الوظائف الإدراكية ودرجة أدلتها ومقامها في حصول اليقين، وما يتعلق بالمعرفة الإنسانية العلمية.

قد أشار القرآن إلى العديد من أصناف التفكير، تصل إلى القرابة العشرين أو أكثر، وبيّن طبيعتها ومناسبتها وأصولها

(١) على سبيل المثال، يمكن ذكر كتاب «**درء تعارض العقل والنقل**» لابن تيمية.

وأمثالها وأوجه تأثيرها في التصورات الكلية التي تحكم سلوك الإنسان وتحدد مجرى حياته. كما ميز القرآن كذلك بين أساليب التفكير السليم والسقيم بمختلف أنواعه. ويحكم هذه الأنماط الجزئية المذكورة في القرآن نظامٌ عقائدي ومعرفي توحيدي شاملٌ تعرض إليه كثيرٌ من علماء الإسلام في دراستهم وتحريرهم لقضايا العقيدة الإسلامية ودورها في التفكير والعمل عند المسلم.

فالتفكير في هذا النظام عملية ذهنية لا تنفصل عن تأمل خلق الله تعالى وكونه وسيلة لذكره والقرب منه عز وجل؛ مما يجعله مرتبطًا به، لا ينفصل به عن التعبد. ويسمى هذا النوع من التفكير بـ (التفكير التوحيدي) أو كما ينعته ابن القيم (توفي ٧٥١هـ) بالفكرة في التوحيد، الذي يعني في نظره «استحضار أدلته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الألوهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين، والتوكل على اثنين، بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق، والرب الحق، وهو الله الواحد القهار»[١].

ويحمل الفكر التوحيدي في أساسه فكرتين أساسيتين سماهما ابن القيم: «فكرة العلم»، و«فكرة الطلب»، فأما الأولى التي تتعلق بالعلم والمعرفة فهي التي «تميز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي، وأما التي تتعلق بالطلب والإرادة، فهي الفكرة التي تميز بين النافع والضار»[٢]، وبهذا التصور النظري تكتمل صورة التفكير التوحيدي من خلال جمع مجال التصور ودوائر النشاط الذهني من الشعور والإحساس والخيال والفعل، والدوائر الأخرى التي تليها من القصد وتصريف الإرادة. هذا، وقد اعتبر ابن تيمية بأن التفكر في عالم الوجود، أي ملكوت السماوات والأرض، لا يقصد منه

(١) ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، تحقيق: رضوان جامع رضوان، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، (ط. ١)، (٢٠٠١م)، (١/ ١٣٧).

(٢) ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، (١/ ١٣٧).

تحصيل المعرفة العلمية بمفهومها العام فحسب؛ بل هو مسلك من مسالك تحصيل «المعرفة الخاصة»، التي تؤدي إلى الشعور بالكمال؛ لأن «القلوب مفطورة على محبة الكمال»[1].

إن التفكير السليم من أولى أولويات القرآن الكريم، وذلك باعتبار أنه رأس مال العبودية والصلاح والاستخلاف، وأن الذين سقطوا في أداء أدوار التكليف كانت بداية فشلهم في التفكير، وما يستلزمه من عمليات إدراكية في الاستيعاب والتقدير وفهم العلاقات واستشرافها، وما يقوم به الإنسان لمعرفة كنهه وذاته، والعالم الخارجي الذي يحيط به؛ ولهذه الأسباب لم تدع مصادر الوحي بيان تلك الجوانب التفكيرية والإدراكية التي لا تستغني عنها حياة الاستخلاف والعمران.

إن لأحوال التفكير السليم في مصادر الوحي صفات عدة من بينها: الإحسان، والذكر، والإصلاح، والاستقامة، والشكر، والاعتبار. ولو اعتبرنا هذه الأحوال مقاييس للوحي في معرفته طبيعة التفكير، فإن الباحث عندئذ سيحصل على وسيلة فريدة في معرفة طبيعة التفكير عند الإنسان. ويكفي في هذا المقام أن نمثل بحالة أو حالتين لتوضيح الفكرة. فعل سبيل المثال لا الحصر: خصلتا الذكر والاعتبار. ولنطرح السؤال الآتي: ما خصوصيات «التفكير الذاكر» و«التفكير الاعتباري» التي تميزهما عن أنماط التفكير التي تقابلهما؟ إن «التفكير الذاكر» هو إحدى أهم المميزات التي تخص التفكير الطبيعي والعلمي المنظم عن غيره من أنماط التفكير التي يمارسها الإنسان وفق جماعته الثقافية والدينية والحضارية. هذا النمط من التفكير هو ذلك النوع من التأمل في الكلي والجزئي الذي يستصحب معه باستمرار ذكر الله وما يلزم عنه من أحوال الفكر والعمل. فذكر الله على سبيل المثال يحمي التفكير من الفوضى والشك المرضي والتشاؤم والكذب والغش، والظلم والتعدي والطغيان والفساد،

(١) عبد الحليم ابن تيمية، **قاعدة في المحبة**، تحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، بيروت، دار ابن حزم-المكتب الإسلامي، (ط. ١)، (١٩٩٩م)، (ص/ ١٨).

وغيرها من السلبيات التي تقع تحتها. لأهمية هذه «الحالة» جعل القرآن الكريم دلالته تساوي دلالة العلم، بل يمكن القول بأن قيمة العلم تساوي نسبة «الذكرى» التي تحققه. يقول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}. [النحل: ٤٣ - الأنبياء: ٧] فالآية جعلت سؤال «أهل الذكر» وقصدهم مطلوبًا في حالة غياب العلم وفقدانه، أي {إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} فلم ترد عبارة {لا تذكرون}.

وعليه، فإن العلوم والمعارف والفنون التي تنسى الخالق وتوجه الإنسان إلى وجهة مادية متطرفة تدس على بعده الروحي في بناء حياته وإدارتها، لا تؤهل حاملها وطالبها لتحقيق معنى العلم وصفة التعلم؛ بسبب أن السنن الإلهية للمعرفة الإنسانية تقتضي أن العلم الحقيقي يستلزم التقرب إلى الخالق؛ لأنه عندئذ يصبح صورة من صور الذكر. وهكذا يتبين أنه عندما يُرَكَّب أو يُحَمَّل التفكير على الذكر، يكون أقرب إلى الصواب والحق بسبب انتفاء أغراض النفس والأنانية وحصول المدد العلمي من الله لقوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٢].

وتقابل الصور الإيجابية للتفكير في القرآن الكريم صور أخرى سلبية، التي فصَّل في بيان أنواعها وأعراضها، وما يساندها من أحوال النفس الإنسانية الأخرى. فكما أن التفكير السليم عملٌ مركب تقوم به النفس الإنسانية بكليتها؛ فكذلك الأمر في التفكير السلبي وأصنافه، الذي يوصف بالسلبي عندما يركب أو يحمل كذلك على أنماط معينة من الصفات التي قد تصل به إلى ثلاث محطات أساسية تضم مراحل مختلفة، وهي: مقدمة التفكير، وآنية التفكير، وما بعد التفكير. ومن المواصفات التي أبرزها القرآن والتي تعتبر من آفات التفكير وأسقامه: الكذب (البقرة: ١٠)، الجحود (الأعراف: ١٥)، المكر (فاطر: ١٠)، النفاق (التوبة: ٧٧)، الصد (الأعراف: ٤٥)، الصدف (الأنعام: ١٥٧)، الانصراف (التوبة: ١٢٧)، التحسب أو

التوهم (الكهف: ١٠٤)، الظن الكاذب (الجاثية: ٢٤)، الريب (التوبة: ٤٥)، الكفر (البقرة: ٨٨)، الجهالة (الأنعام: ٥٤)، الضلال (النساء: ١٦٧)، الزيغ (الصف: ٥)، والارتداد (التوبة: ٤٥).

من خلال ما عرضناه حول طبيعة التفكير الإنساني تبيّن لنا أن هذا الأخير نشاط حيوي مركب ومتداخل يخضع لنظام فطري دقيق يقوم على عقيدة توحيدية. فأي خلل يحدث لتلك العقيدة ينتج عنه خلل في طريقة التفكير وما ينتج عنه من التصورات وتصريف الإرادات في السلوك والفعل. وأن قوة الفكر الإنساني تكمن في توحيده وتنوع آلاته التي تسمح بتغطية صور الوقائع المتغيرة باستمرار واكتشاف ملابسات تلك التغيرات، فكلما كان استعمال تلك الآلات والأساليب أنسب وأحكم كان تفكير الإنسان أقرب إلى الحق والصواب، وأبعد عن الخطأ والضلال. فمشكل التفكير عند الإنسان لا يكمن فقط في تعطيله أو ركوده، بل كذلك انحرافه عن الحق تحت تأثيرات ذاتية وأخرى خارجية نابعة من طبيعة العمران البشري.

تحديد خاصية «العلمية» ومجالها:

ولأهميتها في تحديد طبيعة المعرفة ومرتبتها وقبولها لدى الأوساط العلمية، أصبحت صفة «العلمية» من بين أهم القضايا التي تنازعت عليها العلوم المختلفة، خاصة في المنظومات الإبستيمولوجية غير الإسلامية، كما هو الحال في الغرب منذ بداية عصر النهضة إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث استقر الصراع الفلسفي الطويل بقبول حل «المشاركة النسبية» في صفة العلمية، وأذن للعلوم الإنسانية والاجتماعية بحيز محدود من هذا الوصف. ومع ذلك، فهناك شرخ كبير بين الدين ومعارفه والمعرفة العلمية، بحيث زُحزحت سلطة الدين، ليحتل مكانَها ما يسمونه «العلم» (science). وتطلعنا هذه الأحداث على أهم أشكال الصراع الناعم الخفي والظاهر بين تلك الأطراف، أي الدين والعلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية، حول احتكار صفة «العلمية» والتحكم في سلطانها، ليس فقط في صياغة التفكير الإنساني

ومع ذلك، فهناك شرخ كبير بين الدين ومعارفه والمعرفة العلمية، بحيث زُحزحت سلطة الدين، ليحتل مكانَها ما يسمونه «العلم» (science).

فحسب؛ بل في التحكم في ما يصوغ المجتمع الإنساني من وسائل التدبير والمؤسسات وكل ما يدخل في تشكيل كيانه المعنوي والمادي وتجليات ذلك في الحاضر وفي المستقبل. وباسم العلمانية أو أكثر دقة اللادينية (secularism)، تمكنت هذه الحركة من حصر دوره في حياة الإنسان وتشكيل المؤسسات الاجتماعية، واستبدال سلطة (العلم) به، وما يشكله من مدارس فكرية ونظريات واتجاهات، وتجارب بشرية ومنتجات فكرية، ومؤسسات مدنية بديلة. إن معرفة طبيعة هذا الصراع واستجلاء حفرياته، مما حدث خارج دائرة الحضارة الإسلامية ومنظومتها العلمية والأصولية، يكشف لنا كثيرًا عن أثر ظلاله وامتداداته في تحديد مفهوم (العلم) المتداول بشكل واسع في المؤسسات العلمية والتربوية، والهيئات الإدارية التي تقوم بتدبيره في المجتمعات الإسلامية. لكن تشكيل دلالة (العلم) في المصادر الإسلامية التي عنيت بتاريخ العلوم وأصوليتها كان له وجهة خاصة تميزه عن اتجات المادية التي لا تزال تعمل على تضييق دلالة (العلم) ليصبح مطابقًا (للشيء ماديته وصورته) ولا يخرج عنها. إن التعريفات التي وضعها المسلمون للعلم كانت أكثر اتساعًا وشمولًا من غيرها. لقد تمكنت تلك التعريفات من تحقيق التوازن والاعتدال، وتجنب أصناف الاختزال والإقصاء والتحيز الذي يسقط الحقائق ويشوه صورتها الكلية. فعلى سبيل المثال نجد أن أول تعريف عرضه التهانوي للعلم هو (الإدراك مطلقًا، تصورًا كان أو تصديقًا، يقينًا أو غير يقيني)[1]، ويذكر المفردات المتضمنة في مجال العلم كالتعقل، واليقين،

(١) محمد علي بن علي التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان، الناشرون، (ط. ١)، (١٩٩٦م)، (٢/ ١٢١٩)، مادة: «العلم»؛ انظر كذلك أبو البقاء الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، (ط. ٢)، (١٩٩٨م)، (ص/ ٦١٠ - ٦١٨).

والتخيل، والتوهم، وصورة الذهن، والإدراك الكلي، وإدراك المسائل عن دليل، والمسائل المدللة، والملكة الحاصلة، وملكة الاقتدار، والاعتقاد الجازم، والانكشاف، وحصول المعنى والصناعة[1]. ويعرض ضمن هذه التعريفات حتى التي كان يعتقد في ابتعادها عن هذا التصور كالذي ذهب إليه أبو بكر ابن فورك (توفي ٤٠٦هـ)، صاحب «الحدود والمواضعات» باعتبار العلم إتقان الفعل حين عرّفه بـ «ما يصح لمن قام به إتقان الفعل، أي إحكامه وتخليته عن وجوه الخلل»[2]. وهذا ضمن التعاريف المدرسية التي يقول بها أصحاب التخصصات كالحكماء (الفلاسفة) وعلماء الكلام، وبعدها ينتهي في عرضه لحد (العلم) إلى تعريف استنتاجي يعتبر العلم أمرًا قائمًا بالنفس يوجب لها أمرًا به تميِّز الشيء عما عداه بحيث لا يحتمل ذلك الشيء نقيض ذلك الأمر[3]. هذا إضافة إلى مفهوم (المعرفة)، التي حددها العلماء بأنها أخص من العلم؛ لأنها كما يصورها الفيروزآبادي «إدراك الشيء بتفكر وتدبّر لأثره... ويقال: فلا يعرف الله. ولا يقال: يعلم الله متعديًا إلى مفعول واحد، ولما كانت معرفة البشر هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته. ويقال: الله يعلم كذا ولا يقال: يعرف كذا، لمّا كان المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصَّل إليه بالتفكر وتدبر»[4].

والمعرفة درجةٌ ثانيةٌ بعد العلم، فهي تعتمد على القرائن والأثر كوسائط تستنبط منها تصورات حول الموضوع المقصود. وقد وردت في القرآن كلمة بالغة الأهمية تدعم هذا المنحى التفسيري، ألا وهي كلمة (السّمة) كما في سورة البقرة (٢٧٣)، والأعراف:

(١) ذكرها كذلك صديق بن حسن القنوجي، **أبجد العلوم (الوشي المرقوم في أحوال العلوم)**، أعده: عبد الجبار زكار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (١٩٨٧م)، (١/ ١١ - ١٥؛ ٢٦ - ٣١).

(٢) التهانوي، **كشاف مصطلحات الفنون والعلوم**، (٢/ ١٢٢٢)، مادة: «العلم»؛ نُسب هذا التعريف من قبل إلى إمام الحرمين في كتبه البرهان.

(٣) التهانوي، كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، (٢/ ١٢٢٣، ١٢٢٤)، مادة: «العلم».

(٤) مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي (توفي ٨١٢هـ)، **بصائر ذوي التميز في لطائف كتاب العزيز**، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: المكتبة العلمية، (٤/ ٤٧).

(٤٦؛ ٤٨)، وفي سورة محمد {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٠]. ولقد حددت (السمة) في هذا الموضع بـ (لحن القول). وجود هذه المسافة من الوسائط، جعل بعض علماء المسلمين كالجرجاني مثلًا يشير إلى حصول سبق الجهل بالموضوع، وهو خلاف حالة (العلم). يقول الجرجاني في معجمه: (المعرفة إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم)[1].

(التفكير العلمي) وأنماط تصنيف العلوم:

قد يرى البعض أن دراسة تصنيف العلوم عند المسلمين يساعد كثيراً في تحديد طبيعة التفكير العلمي ومجالاته النظرية وتطبيقاته العملية، ولكن عند تقدير التأثيرات الخارجية للعلوم الدخيلة كالفلسفة والمنطق في التراث اليوناني الإغريقي على تلك التقسيمات التي وضعها علماء المسلمين، يتضح أن تلك المقاربة غير كافية؛ إذ يستوجب الأمر العودة إلى مصدر الوحي (القرآن والسنة النبوية) الذي كان النباع الأول الذي شكل التفكير العلمي عند المسلمين.

إن الدارس لتلك التصنيفات المختلفة يلاحظ وجود خط فكري لمراجعة وتصحيح وتأصيل خفيفة، بدأت بجهود محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (توفي ٣٨٦هـ) في كتابه «مفاتيح العلوم» تبرز الفرق بين علوم الشرع وعلوم العجم، وهو التصنيف الذي اتخذ بعين الاعتبار الشخصية الحضارة والنسق الثقافي الذي أنتجه. وهذا التحول يمكن قراءته على أنه استدراك لما وقع فيه الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي (توفي ٢٦٠هـ) في كتابه «ماهية العلم وأقسامه»، وأبو نصر محمد بن محمد الفارابي (توفي ٣٣٩هـ) في «إحصاء العلوم»، وابن سينا (توفي ٤٢٨هـ) في «رسالة في العلوم العقلية» (ثنائية:

(١) عبد القادر الجرجاني، **معجم التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة، (ص/ ١٨٥).

العلـوم الفلسـفية / العلـوم الشرعيـة، العلـوم الحكميـة / العلـوم الملية / العلـم النظـري والعمـلي)؛ الذيـن أغفلـوا تلـك العوامـل الجوهريـة لنشـأة العلـوم بسـبب التأثـر بالعلـوم الدخيلـة وقصـد التقريـب وتمجيـد المعرفـة الإنسـانية وتنزيههـا عـن جذورهـا الثقافيـة. لقـد اسـتمرت هـذه الحركـة عنـد أبي حامـد الغـزالي (تـوفي ٥٠٥هـ) في «إحيـاء علـوم الديـن» وصـولًا إلى ابـن خلـدون (تـوفي ٨٠٨هـ) «المقدمـة»، ومـن جـاء بعـده مثـل طـاش كـبرى زاده (تـوفي ٩٦٨هـ) في كتابه «مفتاح السـعادة ومصباح السـيادة في موضوعـات العلـوم»، وحاجـي خليفـة (توفي١٠٦٧هـ) في «كشـف الظنـون عـن أسـامي الكتـب والفنـون»، ومحمـد بـن عـلي التهانـوي (تـوفي ١١٥٨هـ) في «كشَّـاف اصطلاحـات العلـوم»، وصديـق بـن حسـن القنوجـي (تـوفي ١٣٠٧هـ) في «أبجـد العلـوم»، وغيرهـم ممـن حاولـوا تجـاوز الحـصر الثنـائي (الفلسـفة / الشريعـة) والثـلاثي (الفلسـفة / الشريعـة / اللغـة) إلى تصنيـف متعـدد، لا يتخـذ بالـضرورة شـكلًا هرميًـا، بـل خطًّـا مسـتقيمًا لا يحمـل أي تأكيـد عـلى الترابـط والاسـتمداد بـين تلـك العلـوم. والنتيجـة التـي بلغتهـا حركـة المراجعـة والتنقيـح، هـي الانتقـال مـن قاعـدة الاعتبـار النظـري مقابـل العمـلي إلى أخـرى تعنـى بالعقـلي مقابـل الشرعـي.

ولما كانـت مـن نتائـج هـذه التصنيفـات الثنائيـة أو الثلاثيـة للعلـوم محاولـة توسـيع سـلطة وهيمنـة العقـل (كـما هـو الحـال عنـد المعتزلـة) عـلى حسـاب الـشرع مـن جهـة، وتعطيـل أو ازدراء شـأنه مـن جهـة أخـرى؛ أصبـح مـن الـضروري تغيـير زاويـة دراسـة تصنيـف العلـوم بـدلًا مـن تبنـي مقاربـة الترقيعـات، خاصـة وأنـه يصعـب اليـوم إحصـاء العلـوم كافـة، فضـلًا عـن عرضهـا في صـورة مجملـة كـما كان الأمـر في متنـاول العلـماء القدامـى. لقـد اعتمـد معظـم أصحـاب هـذه التصانيـف عـلى اسـتقراء «العلـوم المتداولـة» أو المدونـة في واقـع مجتمعاتهـم، التـي يصطلـح عليهـا ابـن خلـدون بالعلـوم الواقعـة في العمـران لهـذا العهـد، والمنهـج الوصفـي؛ لـذا وقعـوا في عـدة إربـاكات يمكـن ملاحظتهـا بوضـوح بالرغـم مـن توفيقهـم

في الحفاظ الرسمي على مكانة العلوم الدينية. وهذا الأمر يستدعي تجاوز تلك التصنيفات إلى نوع من التصنيف يكون أوثق وأقرب ليس إلى العلوم المتداولة فحسب بل إلى مصادر الوحي الأعلى، ولا يعتمد على مجرد تجريد استقرائي؛ بل على قراءة موضوعية شاملة للوحي، يركز فيها الباحث على مسألة العلم والمعرفة الإنسانية المتضمنة في الوحي، وهي الخطوة التي توصل إلى تصنيف هرمي شامل، منظم ومترابط ومانع لمحاولات الفصل أو الإقصاء للمعرفة العلمية المعتبرة. ويقوم هذا الهرم التصنيفي على مستويات ثلاثة تربط بينها جسور القرب والمشاركة والإمداد والانتقال، وتتصدر هذه الدوائر علوم الوحي، ثم تلحقه علوم العمران البشري، وتردفه علوم العمران الطبيعي.

إن الدارس لتاريخ العلوم في الإسلام يلاحظ أنه صدَّ ولم يسمح بظهور محاولات الاختزال والتحيز الأصولي في إقرار بعلمية المعارف التي تنتمي إلى هذه المجالات، حين تقوم على دليل من طبيعة المجال الذي تنتمي إليه، كما حدث على سبيل المثال في تاريخ العلوم في أوروبا حين فرقوا العلوم الطبيعية عن غيرها من العلوم، التي ينظر إليها في كثير من الأحيان أنها «شبه علوم» لعدم قيامها على المنهج التجريبي وعدم التزامها بمنهج الملاحظة الإمبريقي. ورغم ذلك، فقد حصل نقاش جادٌّ حول تحديد أفضلية العلوم وشرفها، وخاصة ضمن مجموعة علوم الوحي؛ فذهبت كل فئة من العلماء في ترشيح شعبتها أو تخصصها العلمي الذي تشتغل به، من تفسير وحديث وفقه وكلام وتصوف، والاستماتة في الدفاع عنها والرفع من شأنها من بين بقية العلوم، في حين فنَّدت علمية المعارف التي تقوم على الزيف والضرر، أو تناقض التوحيد، مثل التنجيم والكيمياء القديمة والطلاسم والسحر وفروعه.

ويقودنا هذا الحديث إلى أن صفة «العلمية»، أو ما يطلق عليه «العلم» في الإسلام، لا يختص بمجموعة من العلوم دون غيرها، كما حدث وما

زال يحدث اليوم، من خلال عملية ترويج علمية العلوم الطبيعية على حساب غيرها من المعارف، مما يعود في حقيقة الأمر إلى أصول ميتافيزيقية مادية إلحادية تسقط كل الحقائق التي لا يساندها من المادة أو الحس دليل. غير أنه من منظور الوحي، فالمعارف التي تستمد من مصادر صحيحة وبمناهج سليمة لها كل الحق أن تصنف ضمن «المعارف العلمية»؛ بل إن المنظور التوحيدي للعلم يأخذ بها حتى خارج تلك الدوائر الثلاث التي ذكرناها؛ فعلم الله تعالى، وعلم الملائكة والأنبياء، علم عالم الغيب، تشترك كلُّها في هذه التسمية، وإن كانت خارج نطاق الوعي البشري.

بنية التفكير العلمي ونظامه:

إن بنية التفكير العلمي ليست أقل تركيبًا عن مفهوم العلم الذي اصطلح عليه علماء المسلمين في أكثر من ألف تعريف، والذي يفضلون التمثيل له بمكونات الشجرة التي تضم: الجذور (الميتافيزيقا)، والجذع (الأصول والمنهج)، والأغصان (فروع المعرفة)، والأوراق (الشعب أو التخصصات)، والثمرة (تطبيقات العمل في العمران)[1]. وينعكس هذا التصور لماهية العلم مباشرة على وجه تحديد بنية التفكير العلمي واتجاهه النظري -على الأقل- في اكتشاف الحقائق وتفسير العلاقات السببية التي تربط الأشياء والمفاهيم المجردة بعضها ببعض، وهو الدعاء المشترك بين الذين يشتغلون في مجالات البحث العلمي. فالتفكير العلمي وفق هذه النظرة عَمَليةٌ ووظيفة مُؤَلفةٌ تكَامُليةٌ؛ تجتمع فيها مكونات الفطرة الإنسانية، وإن اختلفت نوعية ونسبة تلك المشاركة ووظيفتها من مُكون فطري إلى آخر. فالتفكير العلمي يدخل فيه أنواع من الشعور، ظاهرة وخفية، غير أنها حاضرة في نفسية الباحث الذي يمارس التفكير العلمي. إن التفكير العلمي نظامٌ من التصورات والمعتقدات التي تؤثر باستمرار في توجيه الفكر وإثارته

(١) قارن مع تمثيل أبي حامد الغزالي للفقه وأحكامه بالثمرة، والمثمر والمستثمر وطريقة الاستثمار: **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق: محمد سليمان الأشقر، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٩٩٨م)، (١/ ٣٩).

فالتفكير العلمي وفق هذه النظرة عَمَليةٌ ووظيفة مُؤَلفةٌ تكَامُليةٌ؛ تجتمع فيها مكونات الفطرة الإنسانية، وإن اختلفت نوعية ونسبة تلك المشاركة ووظيفتها من مُكون فطري إلى آخر.

إلى جانب الجهد وإرادة العمل، وبهذا التصور يمكن النظر إلى مكوناته وفق مراحل ثلاث، تضم المرحلة القبلية والآنية والبعدية. تشكل المرحلة القبلية البنية الخفية للباحث، وتمثل عقيدته الدينية أو الرؤية الكونية الوضعية، والتصورات الكلية الشاملة والكلية الخاصة المتعلقة بالعلم موضوع البحث، بحيث لا يوجد عالم تخلى عن هذا المكون أو ادعى تجاوزه خدمة الموضوعية (objectivity) الذي يقابل التحيز الذاتي (subjectivity)؛ بمعنى وصف الشيء وتفسيره كما يظهر في الواقع مستقلًا عن أي تأثير ثانوي ذاتي أو خارجي.

وتمثل المرحلة الآنية إنتاج المعرفة العلمية واستخدام الوسائل المختلفة باختلاف مجال البحث وعلومه. وتجمع هذه المرحلة مكون قدرات الإنسان وطرق استخدامها، إضافة إلى الوسائل الخارجية التي يستعين بها للاقتراب إلى الحقيقة التي يريد نقلها للناس، وهي وسائط جد مؤثرة في نوعية المعرفة وصورها التي يتوصل إليها. وهنا يتدخل المكون الأساسي في بناء المعرفة العلمية وهو المنهج وأدلته، الذي يعتقد الكثير أنه مكوِّنٌ حاسمٌ في اكتشاف وإيجاد مادة العلم وصياغتها، والأمر ليس كذلك؛ بل يعتبر هو العامل الأساسي في تزويد المعرفة العلمية بألوانها المختلفة التي بفضلها كان البحث في التداخل والتكامل بين مختلف فصول ومجالات المعرفة العلمية ممكنًا. ويضاف إلى هذا المكون عامل «الحال»؛ فالعلم ليس معلومة مجردة عن موضوع بحث، ماديًا كان أم معنويًا، بل حال وحركة خفية للفكر والحال والفعل، وقيم تعبر على كل المعاني الإنسانية التي خلقها الله في موضوع صانع العلم والباحث فيه. وتضم هذه القيم صنفين مهمَّين؛ الأول: كبرى، وحقيقتها أنها مبادئ على

شكل صفات إيجابية تقابلها أضداد سلبية كقيم الحق والباطل، والصدق والكذب، والمعروف والمنكر، والخبيث والطيب، والصلاح والفساد، وتندرج تحتها قيمٌ تفصيليةٌ جزئيةٌ تفرزها الأحوال المختلفة وفق شروط العمران البشري. لقد كان تركيز العلماء كبيرًا على هذا الجانب من مكونات العلم؛ لأن أي مفارقة تحدث بين المعرفة أو العلم النظري المتحصل عليه والفعل وتطبيقاتها القيمية سيؤدي إلى ظهور فساد يمدمر الإنسان وعمرانه. وتتمثل المرحلة الثالثة في التجلِّيات البَعْدية للعلم التي تمثل مجال تأثير العلم ومنتجاته في فكر وحياة الإنسان، وأيضًا في محيطه الطبيعي الخارجي. إن مفهوم العلم لا يتوقف عند مرحلة تحصيل أو توليد المعلومة وما تنتجه من ممكنات العمل، بل يشمل أيضًا أثر ذلك في حياة الإنسان وما حوله. فعِلمية أصناف المعلومات المكتسبة التي يطور الإنسان تأثيرها باستخراج وسائلها تتوقف عند حد المنفعة التي يحققها، فكلما كانت تلك المنفعة أكبر؛ كلما اتسعت مشروعيتها العلمية، وكلما ضاقت وانكمشت؛ انخفضت معها طرديًا «الصفة العلمية» إلى أن تصل إلى حد الفقدان الكامل كما هو الحال مع السحر. إن مقصد الحفاظ على العمران البشري من أولى أولويات الإسلام؛ فالعلم ليس إلا وسيلة لتحقيق مقاصد خلق الإنسان فوق الأرض، وعلى هذا فإن أي معرفة إنسانية تخل بهذا المبدأ وتتسبب في الفساد، تعرض نسبة علميتها إلى النقصان حتى تصل في بعض الأحيان إلى العدم حين يرتفع نسبة الكذب والمضرة فيها. ولعل خير مثال ذلك ما وقع للكيمياء قديمًا،كما هو الحال بالنسبة إلى حكم السحر، والجراحة التجميلية في وقتنا الحاضر. كما أنه لا يمكن وصف العلم والمعرفة في الإسلام إلا بأنه قربة وهداية ونعمة، وحين تخترق المعرفة الإنسانية مقاصد غيرها تعاكس هذه القيم والسنن الإلهية في الخلق والكون، تضيع عندئذ قيمة تلك المعرفة بسببها، ويصبح حاملها أقرب بالحاكي للعلم[1]، وليس

(١) انظر: محمد علي بن علي التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق: علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان، الناشرون، (ط. ١)، (١٩٩٦م)، (١/ ٣).

عالمًا؛ لفقدانه الدليل من ذاته على العلم الذي يمليه. ويتمثل الدليل الذاتي الذي نقصده هنا في أحوال النفس الإيجابية التي تقع على العالِم بسبب علمه، وهي الأحوال التي تدخل في الإطار الكلي للإيمان بالله تعالى، وما يقوم عليه من الشروط والأسس والأحكام في التفكير والسلوك.

ولعله لهذا السبب، كان حكم العلماء المسلمين على العلم بالنفع إذا استوفى شروطه المستمدة من الوحي، فعلى سبيل المثال: يقول القنوجي في مطلع مبحث سماه: «في دفع ما يتوهم من الضرر في العلم وسبب كونه مذمومًا»، «اعلم: أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار، ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع؛ لأن في كلِّ علمٍ منفعةً ما في أمر المعاد أو المعاش أو الكمال الإنساني، وإنما يتوهم في بعض العلوم أنه ضار أو غير نافع لعدم اعتبار الشروط التي تجب مراعاتها في العلم والعلماء؛ فإن لكل علم حدًّا لا يتجاوزه»[١].

لقد اصطلح علماء المسلمين على هذا الجزء من العلم، أي تطبيقاته من خلال مفاهيم عدة، كالمنفعة والفائدة والمصلحة والثمرة والمقاصد وغيرها، وكلها تدل على ما يسببه العلم ويحققه من ثمرات طيبة في حياة الإنسان.

ولهذا ذكر القنوجي في شرحه لغاية العلم ما يلي: «اعلم أنه إذا ترتب على فعل أثرٌ، فذلك الأثر من حيث إنه نتيجة لذلك الفعل وثمرته يسمى فائدة، ومن حيث إنه على طرف الفعل ونهايته يسمى غاية. ففائدة الفعل وغايته متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار. ثم ذلك الأثر المسمى بهذين الأمرين، إن كان سببًا لإقدام الفاعل على ذلك الفعل، يسمى بالقياس إلى الفاعل غرضًا ومقصودًا»[٢]، وفي حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم-: «سَلوا الله علمًا نافعًا وتعوذوا بالله من علم لا ينفع»[٣].

(١) القنوجي، **أبجد العلوم**، (١/ ١٠٥).

(٢) القنوجي، **أبجد العلوم**، (١/ ٤٩).

(٣) ابن ماجه، **سنن ابن ماجه**، كتاب الدعاء، حديث رقم: (١٧).

غير أن هناك جانبًا آخرَ لهذا التأثير، وهو التأثير الذي يحدثه علم في العلوم الأخرى، القريبة منه أو البعيدة، كتأثير التفكير الرياضي في الاجتماع والسياسة مثلًا، أو العلوم البيولوجية في علم النفس، والفنون في الاقتصاد، وغيرها من دوائر التأثيرات المخالفة، التي قد ترتقي في بعض الأحيان إلى إيجاد مجالات بحث جديدة ورؤى علمية متميزة في الطرح والتحليل، كما تسبب في حالاتٍ اختراقات سلبية وتعطيلًا وتأثيرًا في دينامية العلم الأصلي، أي المُؤَثَر فيه، وهذا واضح في تأثير المنطق في الفقه، والفلسفة في التصوف، وعلم الكلام «الفلسفي» في علم العقيدة، كما حدث في تاريخ العلوم والمعارف الإسلامية.

ومن خلال هذه المكونات الأساسية التي تشكل بنية العلم وتُظهر نظامًا متكاملًا يقوم على علاقة ثلاثية بدلًا من الثنائية (الذات العارفة + الموضوع قيد الدراسة) المشهورة في الدوائر المادية للبحث، وهذه العلاقة الثلاثية تشمل كلًا من الذات العارفة، ومصادر الوحي، والموضوع الذي هو قيد الدراسة. هناك فروق كثيرة تميز النظامين (الثنائي والثلاثي) التي تبدأ من الأساسيات البنيوية للعلم كالرؤية الكونية والكليات، والأصول والغايات، وتوظيف المعرفة العلمية في العمران البشري، وطرق استغلال موارد العمران الطبيعي، وهذه الفروق الجوهرية تحدد نوعية المعرفة العلمية ولغتها التفسيرية واتجاه نموها وصور تجليتها. وفي هذا المقام، ينبغي أن نشير إلى مثال جوهري في بيان قيمة تلك الفروق؛ فما يسمى بالموضوع في النظام الثنائي (الذات العارفة، والموضوع) وبالظاهرة (phenomenon)، هو تعبير يدل على إحدى خصائص الموضوع ومحدداته؛ فالجوانب الظاهرة من الموضوعات هي التي تشكل مجال البحث والتحليل والتجريب والقياس والتفسير والتحقيق والوصف والاستقراء وباقي العمليات الأخرى التي تقر بها المنهجية الوضعية التي هي أم العلوم اللادينية (secular sciences) المعاصرة، والتي تضم مجموعة العلوم الإنسانية والطبيعية معًا. بينما هي في النظام

وفي هـذا المقـام، ينبغـي أن نشـير إلى مثـال جوهـري في بيـان قيمـة تلـك الفـروق؛ فـما يسـمى بالموضـوع في النظـام الثنـائي (الـذات العارفـة، والموضـوع) وبالظاهـرة (phenomenon)، هـو تعبـير يـدل عـلى إحـدى خصائـص الموضـوع ومحدداتـه.

الثـلاثي المشـار إليـه، يكـون الوصـف الأسـاسي للموضـوع: آيـة (sign)، وهـي مفهـوم أوسـع وأبعـد وأعمـق مـن الظاهـرة. فالآيـة تشـمل مـا تحملـه الظاهـرة وتتعداهـا في اتجاهـين؛ الأول عمـودي والآخـر فوقـي.

فأمـا العمـودي فيتجـه إلى مسـبب الأشـياء وعللهـا، ويكـون باسـتحضار اللـه الخالـق في البحـث والملاحظـة والفحـص والتنقيـب، وهـو مـا يفـسر اعتبـار العلـم في الإسـلام نوعًـا مـن الذكـر. وأمـا الاتجـاه الأفقـي، فيقـع عـلى حـدود العلـم والموضوعـات التـي تدخـل في مجالـه، وطبيعـة الموضوعـات والنظـام الـذي يرتبهـا ويقـوم بهـا ويربـط بعضهـا ببعـض. إن أصـل نظـام التفكـير مـن منطلـق الوحـي ليـس في ذاتـه فحسـب كـما تعتقـد النظريـات الوضعيـة، بـل مـن خارجـه. بحيـث لا يمكـن أن يتصـور تفكـير مسـتقيم في عـالم فوضـوي؛ ولهـذا السـبب نقـول إن أصـل النظـام هـو اللـه الـذي خلقـه، وهـو الـذي وضـع قوانينـه المعلومـة وغـير المعلومـة. أمـا الوسـائل التـي سـيعتمد عليهـا الفكـر فتمثـل ألـوان النظـام الـذي يقـوم عليـه. فمـن دون الوسـائل يكـون التفكـير غـير ممكن.

ومـما لا شـك فيـه أن تصميـم تلـك الوسـائل يحمـل رسـالة إبـداع المصمـم؛ فلذلـك نجـد أن تلـك الوسـائل تعكـس أيضًـا صـورة الاسـتواء أو التسـوية التـي خلـق اللـه بهـا الإنسـان. فعلـماء الإسـلام لم يصـدر عنهـم أي فكـرة أو تفسـير لملـكات الإنسـان يمكن أن تؤخـذ على أنها احتقـار أو شـك تهكمـي ينقـص من كمال تلـك الوسـائل عـلى غـرار مـا حـدث عنـد مفكـري أوروبـا في بدايـة عـصر النهضـة في القـرون الماضيـة، وهـي النظـرة التي لا تـزال تتحكـم في نفسـية الباحـث والعـالم والمفكـر العـربي والشرقـي المنفصـل عـن

الدين الحق. فالشك ثم الشك هو منبع العلم عندهم وليس (الشوق). إن وضع القرآن لقواعد وضوابط دقيقة لتحديد ماهية (التفكير السليم) لم يؤدِ إلى خلق تصور ميكانيكي جامد في تنمية هذا الفكر العلمي وبسط نفوذه وتأثيره في حياة الإنسان؛ بل جاءت في الوحي القرآن وسائل عديدة لتحصيله وتغذيته وتقويته حتى يتمكن من سد حاجات الإنسان باختلاف أنواعها وكثرتها وفق ما يقتضيه العمران البشري وحركيته المتجددة.

إن وضع القرآن لقواعد وضوابط دقيقة لتحديد ماهية (التفكير السليم) لم يؤدِ إلى خلق تصور ميكانيكي جامد في تنمية هذا الفكر العلمي وبسط نفوذه وتأثيره في حياة الإنسان.

لقد اعتمد القرآن على أساليب عدة لتغذية نماء الفكر الإنساني ومرونته منها: الإثارة، والتحدي، والمثال، والعرض، والحث، والتوجيه، والتسديد والمقارنة، والتصوير، والجدل، والتأمل، والترغيب والترهيب، والاستكشاف، والمظاهرة[1].

الشروط الذاتية لتشكيل الفكر الإنساني:

تقوم صناعة الفكر بنوعيه الإيجابي والسلبي وما يقع تحتهما من أنماط جزئية للفكر التي تتلون بنسبة الاستعداد وطبيعة القدرات والتصورات الذهنية والوسائل والمقاصد، على شرطين أساسين؛ أولهما يتجه إلى الذات المفكرة، والآخر يعود إلى مصادر الفكر وموضوعه. وعلى أساس هذه الشروط تكون الاستفادة من الوحي وعلومه، بحيث كلما توفرت في الشخص كانت الاستفادة أكثر، والعكس بالعكس، أي إن فشل الناس في صياغة طرق تفكيرهم وفق مقاييس الوحي وأحكامه وهديه لا يمكن إطلاقًا إرجاع

(١) انظر: مالك بدري، التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، (١٩٩٥م)، (ص/ ٦٣ - ٧٠)؛ عبد الوهاب محمود إبراهيم حنايشة، **التفكير وتنميته في ضوء القرآن** (رسالة ماجيستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠٠٩م)، (ص/ ٩٠ - ٩٥).

سببه إلى مصدر الوحي كما يعتقد الكثير، مرضيًا بصعوبات في دراستها خاصة الذين لم تتوفر فيهم الشروط الضرورية الدنيوية كوسائل الفهم التي تضم اللغة العربية. بل السبب الرئيس الذي يحول دون تحقيق صور الفكر السديد الراشد والمتوازن هو الخلل الذي يحل على الذات المفكرة. لقد ذكر القرآن تلك الشروط الذاتية في قوله -تعالى-: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧] لقد ذكرت الآية الوسيلة (القلب)، والأحوال (السمع والشهادة)، والأثر (الذكرى). لقد شرح ابن قيم الجوزية (توفي ٧٥١هـ) العلاقة التي تجمع هذه الشروط بما سماه بتحقيق (تمام التأثير)، (وذلك أن تمام التأثير لماّ كان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز اللفظ وأبينه وأدلّه على المراد)[1].

قد يعتقد البعض أن الآية اقتصرت على الحد الأدنى من ألوان التأثير وهو حصول «التذكر»، وهذا صحيح إلى حد ما؛ لأن بداية تشكيل الفكر الإيجابي تعتمد كثيرًا على التذكر لما يحمله من النسبة العالية من التقويم، أو بلغة الفقه «الترجيح» الذي يقوم بدوره على استحضار صور من التفكير والسلوك والأحداث وكل ما يدخل في تشكيل آنياته. لكن التذكر في مصادر الوحي لا يقف عند هذا الحد؛ بل ينقل الباحث إلى مرحلة أشمل وأعمق، هي حصول العلم.

لقد اختزل القرآن الكريم المسافات الدلالية التي قد تفصل بين الكلمتين في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣ ؛ الأنبياء: ٧]، ومنع القرآن كذلك حدوث فواصل وقواطع تقصيرية أخرى بين كم وكيف العلم وكم وكيف العمل، وجعل ذلك سببًا لجذب «مقت الله وكراهيته» في قوله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢، ٣].

(١) ابن قيم الجوزية، **الفوائد**، تحقيق: محمد عزير شمس، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (ط. ١)، (١٤٢٩هـ)، (ص/ ٣).

إن المرحلة التي يصل إليها تأثير الوحي في صياغة الفكر هي حصول الحال، ويكون ذلك بقوة العلم والعمل على حد سواء. وحينها كما قال ابن قيم «فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[1].

مناعة التفكير العلمي ونموه:

أي نظام شامل لا يضم معه نظام خاص يحميه فهو لا يستمر ولا يكتب له حياة مستديمة. إن هداية القرآن الكريم للإنسان في الفكر لم تقتصر على مجرد تعريفه بعملية التفكير وسلامتها، بل امتد إلى إطلاعه على نظام «مناعة الفكر»؛ وهو نظام خاص كامل يسد الطريق أمام كل أنواع الانحراف في التفكير والعمل بمقتضاه، وهذا بغض النظر عن إمكانية الخطأ الذي هو من صميم فطرة البشر المحدودة، والذي لا يترتب عنه الفساد القاتل كما هو الحال في الانحراف؛ لأن الخطأ تتبعه المراجعة والتصحيح أما الانحراف فيتبعه في الغالب التعنت والتعصب والعناد ومقاومة الحق. تقع المناعة أو الحصانة الفكرية على نوعين: ذاتية وخارجية، فأما الذاتية فهي وظيفة تنجز على مستوى القدرات الذهنية الفطرية ونمو الملكة في استعمالها، بداية من الشعور الخفيف إلى الإحساس والإدراك والمعاينة المباشرة. يقول الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨]؛ {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]. وأما المناعة الخارجية فمنبعها ومبدؤها سنن ونظام الحق وميزانه الذي وضعه الله في الكون. {وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٧ - ٩]. فالله قد ميّز وفصل بين الحق والباطل، والطيب والخبيث،

(١) ابن قيم الجوزية، **الفوائد**، (ص/ ٤).

والصالح والفاسد؛ فلا يتحول أحدهم إلى الآخر بسبب الكثرة والدعم والاتباع والظن والاعتقاد. يقول الله عز وجل: {قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ١٠٠]؛ {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد ١٧]. بل أكثر من ذلك؛ فالحق والعلم هو الثابت والماكث والظاهر، وما يقف ضده من الباطل والجهل هو الزائل والزاهق، يقول الله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]؛ {وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشرى: ٢٤]. هذه المناعة تساعد على إحداث حالات الاعتدال في النفس، التي حسب ابن خلدون تكون مؤهلة للقيام بالتمحيص والنظر فيما تفكر أو تنقل من الأخبار[١]. أما من ينقصه وعي ودراية بهذه المناعة، فيجره هواه وجهله إلى أنوع محتلفة من التفكير السلبي كالأنانية والكذب، والإعراض عن الحق. ولقد ذكر ابن خلدون بعض هذه الأصناف عند نقده لمنهجية المؤرخين في نقل الأخبار، منها: التشيع للرأي أو النحلة، والثقة بالناقلين، والذهول عن المقاصد، والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، والتقرب لأصحاب التجلة والمراتب، والجهل بطبائع الأحوال في العمران[٢]. هذه الحالات التي ذكرها يمكن اعتبارها نماذج وعينات من التفكير السقيم (المخترق) الذي يعاني أصحابه من ضعف في مناعة التفكير.

آفات الفكر ومعوقاته:

إن الدارس للقرآن يدرك جيدًا أن كمال بيان ماهية التفكير الإنساني لا يقتصر على عرض الحالات العادية لهذا النشاط فقط؛ بل البيان يشمل كذلك إطلاع الإنسان على ما يمكن أن يحدث من العوارض التي تعوق هذه الحالات الفطرية السليمة. الشيء

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، (١/ ٥٢).

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه، (١/ ٥٢).

الأولي والأساسي الذي بيَّنه الوحي القرآني فيما يخص هذه العوارض هو تشخيصه المتعدد الزوايا والجوانب. إذ لم تكن آفات الفكر ومعوقاته من منظور القرآن محصورة في خط مستقيم يحمل قيمتين متقابلتين؛ الأولى إيجابية وهي العلم، والثانية سلبية وهي الجهل، بل يدخل في تشكيل آفات الفكر الإنساني عوامل تكوينية أخرى تعكس كل منها جانبًا من جوانب الفطرة الإنسانية.

وهنا نذكر جملة من هذه العوائق التي ذكرها القرآن، منها: (الهوى) الذي ذكر في القرآن في نحو ٣٨ موضعًا، وهو أقوى ضغوط النفس الأمارة بالسوء على الإنسان. فالهوى بلغة القرآن يصل في أقصى تأثيره في الإنسان إلى درجة (الإله المعبود) (الفرقان: ٤٣). فالهوى لا يعمل فقط على تعطيل اتجاه الفطرة الإنسانية تجاه خالقها، بل يفسد حياة الإنسان كلها النفسية، والفكرية، والسلوكية، والعمرانية. أكبر عائق يواجه التفكير العلمي والذي يسببه الهوى يتمثل في الكفر، والذي يعني لغة التغطية والستر والجحود: «... وكل من ستر شيئًا، فقد كَفَرَه وكَفَّره. والكافر الزرَّاعُ لستره البذر بالتراب. والكُفَّارُ: الزُّرَّاعُ. وتقول العرب للزَّرَّاعِ: كافر لأنه يَكْفُر البَذْر المَبْذورَ بتراب الأَرض المُثارة إِذا أَمَرّ عليها مالَقَهُ؛ ومنه قوله تعالى: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} [الحديد: ٢٠]؛ أَي أَعجب الزُّرَّاعَ نباته... والكَفْرُ، بالفتح: التغطية. وكَفَرْتُ الشيء أَكْفِرُه، بالكسر: أَي سترته. والكافِر: الليل»[1]. فالكفر قد لا يغطي الجزئيات من الحقائق، لكنه يحجب الإنسان عن أمهات الحقائق التي بعضها فوق بعض إلى أن تصل إلى حقيقة الحقائق، وهي الله الخالق. فجحود الخالق في كل شعبة من شعب العلم يلوث المعرفة التي ينتجها ذلك النظام المعرفي، الذي في كثير من الأحوال يصطنع آلهة بديلة يتغطى أصحابه من ورائها. ولهذا يكون «الإيمان» الذي يقابل «الكفر» مكونًا أساسيًا للعلم والتفكير العلمي في الإسلام. فالكافر بالله لا يسمى «عالمًا»؛ لأن هذه الصفة

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة: «كفر».

فالكفر قد لا يغطي الجزئيات من الحقائق، لكنه يحجب الإنسان عن أمهات الحقائق التي بعضها فوق بعض إلى أن تصل إلى حقيقة الحقائق، وهي الله الخالق.

تلزم عنها صفة أخرى وهي «خشية الله»، والخشية يتعذر حصولها بفقدان أساسها وهو الإيمان بالله الخالق. يقول الله تعالى: {كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

ثمة نوع آخر من الآفات يكمن في حدوث التعطيل الكيفي للملكات، فقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة في العديد من المناسبات وهو يُذَكِر الإنسان فيها برفع ذلك التعطيل باستخدام ملكات وأدوات الإدراك التي منحها الله له باستخدام أساليب عديدة، منها المثال والتصوير والاستفهام. يسبب هذا التعطيل قصورًا كبيرًا في اكتساب العلم والاستفادة منه والتحلي به، وتكون أعراضه في قلة النشاط والاستسلام إلى سلطة الشائعات والتقليد. وبذلك يحرم الشخص من الأحوال الروحية التي يثمرها العلم من الشكر والذكر، والفكر والتدبر والاعتبار والخشية والقربة. ثم نجد أن القرآن يشير كذلك إلى الضلال، وهو كل شعور وفكر وتصور يقود إلى فعل يتجاوز فيه المرء الحق، يقول الله تعالى: {فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣٢]. فالضلال يخلق كذلك حالات من عدم التحكم في النفس ومكوناتها، وهذه الحالة ذكر مِثالها الله تعالى في قوله: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: ١٨]، فيصبح المرء فيها بلا مرجعية وبلا سند لما يدعيه؛ تراه يترنح ويتذبذب بين جوانب مختلفة ومتقابلة. يقول الله في وصف هذه الحالة من الوعي الفاسد: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء: ١٤٣].

ثمة عوامل سلبية أخرى تدفع بالإنسان إلى الوقوع في الضلالات، أهمها التشيع إلى الفئات والجماعات الملونة، أي التي تصطنع تميزًا وهميًا غير شرعي يقوم

على اعتبارات مادية أو معنوية كاذبة أو خاطئة. فالتشيع لا يهدم الفكر العلمي فقط؛ بل كذلك الشعور والمعتقد الديني السليم، ويخلق البأس الشعوري والسلوكي بين الناس؛ لذا فقد فصل الله هذا «التشكيل السلبي» عن الهدى الذي أتت به الأنبياء والرسل، يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: ١٥٩].

بل جعل الله «التشيع» طريقة لعذاب الضالين بما يسببه من الخراب والفساد والضرر بين الناس، يقول الله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: ٦٥]. وفي الأخير يمكن أن نذكر الجهل، وهو مفهوم يحمل دلالتين: أولاهما فقدان العلم بأمر ما، وثانيتهما حضور اعتقاد جاهلي أو تصور خاطئ. ففي كلتا الحالتين يقوم مقام العلم ويصد عن اكتسابه، ولكن رغم ذلك فالحالة الأولى أسهل من حيث التجاوز والعلاج من الثانية التي يرتدي الجهل فيها لباس العلم، ويُعْتَقَد في صورته ودلالته وفائدته. فلهذا لم يكتفِ القرآن بذكر «الجهل»، بل أضاف إليه «حكم» و«ظن» و«حمية» «الجاهلية» [آل عمران: ١٥٤ ؛ المائدة: ٥٠ ؛ الفتح: ٢٦] بناء على قوة تأثيره وديمومته لدى الجماعات البشرية التي تتخذه رؤية كونية وسبيلًا في الحياة.

لقد أحسن ابن القيم تفسير ظاهرة فساد الفكر بتعيين مواطن القلب، وهي كما بيَّنها تختلف عن تفسيرات العلوم اللادينية والاتجاهات الفكرية المادية التي تعتبره مجرد مضغة تنتمي إلى جملة الأعضاء الفيزيولوجية تنحصر وظيفتها ضمن تلك الأعضاء. كما يختلف تفسيره عما تراه الاتجاهات الروحانية البحتة التي تعتبر القلب جزءًا من عالم ما فوق التجربة الإنسانية أو الاستسلام الشعوري تجاه مكونات التجربة الروحية وأحوالها. لقد استمد ابن القيم تصوره للقلب من التصور القرآني والنبوي للمفهوم، اللذين يؤكدان أن هذا الأخير،

أي القلب، يعقل ويفقه ويحيا ويموت لا بموت الشخص؛ بل بموت دوره الروحي والنفسي والذهني - الإدراكي. لقد جاء تفسير ابن القيم موفقًا وسديدًا، حين قسم مواطنه إلى قسمين: علوية تساعد القلب والتفكير على الوعي والحياة، وهي تتمثل في عبادة الله، وحصول العلم والمعرفة، وتشكل البصيرة والعقل الراشد أو «المُكَوَن والمُكَوِن» أو كما سماه ابن خلدون «العقل المزيد»[١]، والسفلية وهي التي تشكل العوائق[٢] الكبرى التي تحتل القلب وتدفعه إلى الذهول عن مقصده. وتشمل هذه الدنيا وزينتها، وحديث النفس، ووسوسة الشيطان.

خاتمة:

من خلال ما تقدم توصل البحث إلى أن القرآن يضم رؤية شاملة حول قدرات الإنسان الذهنية بما فيها التفكير وأنماطه. إذ بيّن ظوابط التفكير «العلمي» وشروطه وماهية العلم وحدَّد أوصافه ومكوناته ومجالاته ضمن شروط العمران البشري. لم يكتف القرآن بهذا القسط، بل تصدى إلى بيان شروطه المختلفة ومعوقاته الذاتية والخارجية، وقبل ذلك لقد تضمن القرآن والسنة النبوية أكمل نظام تحفيزي على التفكير وتقصي شروط التفكير العلمي. لقد توسعت هذه التحديدات القرآنية للعلم لتشمل أدوات بيان مسالك ومناهج اكتساب مهارات التفكير العلمي، ابتداء من البسيطة إلى المعقدة، ثم أدوات الحماية أو الصيانة والمحافظة على التفكير العلمي ومنجزاته المعنوية والمادية. إن من مميزات التفكير العلمي كما يرسمه القرآن الكريم والسنة النبوية كونه سلطانًا وبرهانًا وآية تتجاوز الأطر الضيقة التي تقوم عليها الفلسفات الوضعية والمادية للعلوم. إن التفكير والتفكير العلمي في الإسلام يقوم على رؤية كونية توحيدية وعلاقات ثلاثية تشمل الخالق والإنسان والعلم. فالإنسان ضمن هذه الرؤية لا يكتسب المعرفة فقط، بل ينمي إيمانه بالله الخالق؛ وعليه يكون «التفكير العلمي» مبنيًا على التأليف والجمع والتكامل لا التجزئة والإقصاء والتحيز.

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، (٢/ ٣٥٤).

(٢) لقد أحسن أبو حامد الغزالي شرح وبيان هذه العوائق وأثرها في سلوك المسلم في كتابه «**منهاج القاصدين**».